سورة طــه



يقول الحق سبحانه في بداية سورة طه[1] :

﴿ طه ① ﴾

تكلمنا كثيراً عن الحروف المقطّعة في بدايات السور ، ولا مانع هنا أنْ نشير إلى ما ورد في (طه) ، فالبعض يرى أنها حروف متصلة ، وهي اسم من أسماء الرسول ﷺ ، وآخرون يرونَ أنها حروف مُقطّعة مثل (الم) ومثل (يس) فهي حروف مُقطّعة ، إلا أنها صادفتْ اسماً من الأسماء كما في (ن) حرف وهو اسم للحوت : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا .. ㉗ ﴾ [الأنبياء] و (ق) حرف ، وهو اسم لجبل اسمه جبل قاف .

إذن : لا مانع أن تدل هذه الحروف على اسم من الأسماء ،

---

(١) سورة (طه) هي السورة رقم ٢٠ في ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها (١٣٥) آية ، وهي سورة مكية في قول الجميع ، نزلت قبل إسلام عمر رضي الله عنه ، وهي السورة رقم (٤٤) في ترتيب نزول القرآن ، وقد نزلت بعد سورة مريم وقبل سورة الواقعة . وهي سورة مكية . وقد استثنى منها آيتان هما ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ⑬⓪ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ⑬① ﴾ [طه] . فقد ذكر السيوطي في « الإتقان في علوم القرآن » (١/ ٤٢) أنهما مدنيتان .

فتكون (طه) اسماً[1] من أسماء الرسول ﷺ خاصة ، وأن بعدها :
﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۝٢ ﴾ [طه]

لكن تلاحظ هنا مفارقة ، حيث نطق الطاء والهاء بدون الهمزة ، مع أنها حروف مقطعة مثل الف لام ميم ، لكن لم ينطق الحرف كاملاً ، لأنهم كانوا يستثقلون الهَمْز فيُخَفِّفونها ، كما في ذئب يقولون : ذيب وفي بئر ، يقولون : بير . وهذا النطق يُرجح القول بأنها اسم من أسماء النبي ﷺ .

وسبق أنْ أوضحنا أن فواتح السور بالحروف المقطّعة تختلف عن باقي آيات القرآن ، فكُلُّ آيات القرآن من بدايته لنهايته بُنِيَتْ على الوَصْل ، وإنْ كان لك أن تقف ؛ لذلك فكل المصاحف تُبنَى على الوَصْل في الآيات وفي السور ، فتنطق آخر السورة على الوصل ببسم الله الرحمن الرحيم في السورة التي بعدها .

تقول : ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ۝٩٨ ﴾ [مريم] (بسم الله الرحمن الرحيم) حتى في آخر سور القرآن ونهايته تقول : ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦ ﴾ [الناس] (بسم الله الرحمن الرحيم) مع أنها آخر كلمة في القرآن ، وماذا سيقول بعدها ؟ لكنها جاءت على الوَصْل إشارة إلى أن القرآن موصولٌ أوَّله بآخره ، لا ينعزل بعضه عن بعض ، فإياك أن تجفوهُ ، أو تظن أنك أنهيته ؛ لأن نهايته موصولة ببدايته ؛ فنقرأ ﴿ من الجنّة والناسِ ﴾ ﴿ بِسم الله الرحمن الرحيم ﴾ الحمدُ لله رب العالمين ....

---

(١) قال ابن عباس : معنى (طه) أي : يا رجل . ذكره البيهقي . وقاله الحسن وقال عكرمة : هو بالسريانية كذلك ، ذكره المهدي . وحكى الطبري : أنه بالنبطية يا رجل . وهذا قول السدي وسعيد بن جبير . [تفسير القرطبي ٤٣٣٧/٦] .

إذن : فالقرآن كله في كل جملة وكل آية وكل سورة مبنيٌّ على الوَصْل ، إلا في فواتح السور بالحروف المقطَّعة تُبنَى على الوقف (ألف - لام - ميم) ، وهذا وجه من وجوه الإعجاز ، وأن القرآن ليس ميكانيكا ، بل كلام مُعْجِز من ربِّ العالمين .

لذلك ، فالنبي ﷺ أوضح استقلالية هذه الحروف بذاتها ، فقال « تعلموا هذا القرآن ، فإنكم تؤجرون بتلاوته ، بكل حرف عشر حسنات ، أما إني لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف ، بكل حرف عشر حسنات »[1] .

يقول الحق سبحانه :

﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ ﴾

الشقاء : هو التعب والنَّصَب والكدّ ، فالحق سبحانه ينفي عن رسوله ﷺ التعب بسبب إنزال القرآن عليه ، إذن : فما المقابل ؟ المقابل : أنزلنا عليك القرآن لتسعد ، تسعد أولاً بأن اصطفاك لأن تكون أهْلاً لنزول القرآن عليك ، وتسعد بأن تحمل نفسك أولاً على منهج الله وفِعْل الخير كل الخير .

فلماذا - إذن - جاءتْ كلمة ﴿ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ ﴾ [طه] ؟

هذا كلام الكفار أمثال أبي جهل ، ومُطعم بن عدي ، والنضر بن الحارث ، والوليد بن المغيرة حينما ذهبوا إلى النبي ﷺ وقالوا له :

---

(١) أخرجه الدارمي في سننه (٢/٤٢٩) كتاب فضائل القرآن - باب : فضل من قرأ القرآن من حديث عبد الله بن مسعود .

لقد أشقيتَ نفسك بهذه الدعوة[1] .

وقال رسول الله ﷺ : « إن الله بعثنى رحمة للعالمين »[2] .

فقد بعث رسول الله ليسعد ويسعد معه قومه والناس أجمعين لا ليشقى ويُشقِى معه الناس . لكن من أين جاء الكفار بمسألة الشقاء هذه ؟ المؤمن لو نظر إلى منهج الله الذى نزل به القرآن لوجده يتدخل فى إراداته واختياراته ، ويقف أمام شهواته ، فيأمره بما يكره وما يشقُّ على نفسه ، ويمنعه مما يألَف ومما يحب .

إذن : فمنهج الله ضد مرادات الاختيار ، وهذا يُتعب النفس ويشقُّ عليها إذا عُزِلَتْ الوسيلة عن غايتها ، فنظرت إلى الدنيا والتكليف منفصلاً عن الآخرة والجزاء .

أمّا المؤمن فيقرن بين الوسيلة والغاية ، ويتعب فى الدنيا على أمل الثواب فى الآخرة ، فيسعد بمنهج الله ، لا يشقى به أبداً . كالتلميذ الذى يتحمل مشقّة الدرس والتحصيل ؛ لأنه يستحضر فَرْحة الفوز والنجاح آخر العام .

من هنا رأى هؤلاء الكفار فى منهج الله مشقة وتعباً ، لأنهم عزلوا الوسيلة عن غايتها ؛ لذلك شعروا بالمشقة ، فى حين شعر المؤمنون بلذة العبادة ومتعة التكليف من الله ، وهذه المسألة هى التى جعلتهم

---

(١) قال مقاتل : قال أبو جهل والنضر بن الحارث للنبى ﷺ : إنك لتشقى بترك ديننا ، وذلك لما رأياه من طول عبادته واجتهاده ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۝٢﴾ [طه] [ذكره الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول ص ١٧٤] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٢٥٧) من حديث أبى أمامة رضى الله عنه ، وتمامه : « إن الله بعثنى رحمة وهدى للعالمين وأمرنى أن أمحق المزامير والكفارات يعنى البرابط والمعازف والأوثان التى كانت تعبد فى الجاهلية » .

يتخذون آلهةً لا مطالبَ لها ، ولا منهج ، ولا تكليف ، آلهة يعبدونها على هواهم ، ويسيرون في ظلها على حَلِّ شعورهم .

لذلك أوضح القرآن أنهم مغفلون في هذه المسألة ، فقال : ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۝٢﴾ [طه]

أو يكون الشقاء :تعرُّضه لعُتاة قريش وصناديدها الذين سخروا منه ، وآذوه وسلَّطوا عليه سفهاءهم وصبيانهم ، يشتمونه ويرمونه بالحجارة ، وهو ﷺ يُشقِي نفسه بدعوتهم والحرص على هدايتهم .

والحق تبارك وتعالى ينفي الشقاء بهذا المعنى أيضاً : ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۝٢﴾ [طه] أي : لتُشقي نفسك معهم ، إنما أنزلناه لتبلغهم فحسب[1] ، وقد تكرر هذا المعنى في القرآن كثيراً في مثل قوله تعالى : ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف] وقوله : ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ۝٤﴾ [الشعراء]

وسبق أنْ ضربنا لذلك مثلاً ـ ولله المثَل الأعلى ـ برجل عنده عبدان : ربط أحدهما إليه بحبل ، وأطلق الآخر حُراً ، فإذا ما دعاهما فاستجابا لأمره ، فأيهما أطوع له ، وأكثر احتراماً لأمره ؟

لا شكَّ أنه الحر الطليق ؛ لأنه جاء مختاراً ، في حين كان قادراً على العصيان . وكذلك ربك ـ تبارك وتعالى ـ يريد منك أن تأتيه حُراً مختاراً مؤمناً ، وأنت قادر ألاَّ تؤمن .

---

(١) أخرج الترمذي في سننه (٣٣١٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما من حديث طويل أن رسول الله ﷺ قال : « إنما بعثني الله مبلغاً ، ولم يبعثني مُعنّتاً » . قال الترمذي : « هذا حديث حسن صحيح » .

والبعض يحلو لهم نقد الإسلام واتهام الرسول ﷺ ، فيقولون : إن رسول الله يخطىء والله يُصوِّب له ، ونتعجب : وما يضيركم أنتم ؟ طالما أن ربه هو الذى يُصوِّب له ، هل أنتم الذين صوَّبتم لرسول الله !؟ ثم مَنْ أخبركم بخطأ رسول الله ؟ أليس هو الذى أخبركم ؟ أليس هذا من قوة أمانته فى التبليغ ويجب أن تحمد له ؟

إذن : فرسول الله ﷺ لا يستنكف أنْ يُربِّيه ربه ؛ لذلك يقول : « إنما أنا بشر يَرِد علىَّ - يعنى من الحق - فأقول : أنا لست كأحدكم ، ويُؤخذ منى فأقول : ما أنا إلا بشر مثلكم » .

وقد تمحَّك هؤلاء كثيراً فى قصة عبد الله بن أم مكتوم ، حينما انشغل عنه رسول الله بكبار قريش ، والمتأمل فى هذه القصة يجد أن ابن أم مكتوم كان رجلاً مؤمناً جاء ليستفهم من رسول الله عن شىء ، فالكلام معه ميسور وأمر سَهْل ، أمّا هؤلاء فهم رؤوس الكفر وكبار القوم ، ولديهم مع ذلك لَدَد فى خصومتهم للإسلام ، والنبى ﷺ يحرص على هدايتهم ويُرهِق نفسه فى جدالهم أملاً فى أنْ يهدى الله بهم مَنْ دونهم .

إذن : النبى فى هذا الموقف اختار لنفسه الأصعب ، وربه يعاتبه على ذلك ، فهو عتَاب لصالحه ، له لا عليه[1] .

---

(١) وفى هذا يقول الحق سبحانه : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) ﴾ [عبس] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ ﴾

أى : ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، وإنما أنزلناه (تذكرةً) أى تذكيراً (لمَنْ يَخْشَى) الخشية : خَوْف بمهابة ؛ لأن الخوفَ قد يكون خوفاً دون مهابة ، أمّا الخوف من الله فخوْف ومهابة معاً .

﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ۝٤ ﴾

تنزيلاً : مصدر أى : أنزلناه تنزيلاً ، وقد ورد فى نزول القرآن : أنزلناه ، ونزلناه ونزل ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا .. ۝٤ ﴾ [القدر]

لأن القرآن أخذ أدواراً عدَّة فى النزول ، فقد كان فى اللوح المحفوظ ، فأراد الله له أن يباشر القرآن مهمته فى الوجود ، فأنزله من اللوح المحفوظ مرة واحدة إلى السماء الدنيا ، فأنزله ـ أى الله تعالى ـ ثم تَنَزَّل مُفرَّقاً حسْب الأحداث من السماء الدنيا على قلب رسول الله ﷺ والذى نزل به جبريل : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝١٩٣ ﴾ [الشعراء]

وقوله تعالى : ﴿ مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ۝٤ ﴾ [طه]

خَصَّ السموات والأرض ، لأنها من أعظم خَلْق الله ، وقد أعدهما الله ليستقبلا الإنسان ، فالإنسان طرأ على كَوْن مُعَدٍّ جاهز لاستقباله ، فكان عليه ساعة أنْ يرى هذا الكون المُعدَّ لخدمته بأرضه وسمائه ، ولا قدرة له على تسيير شيء منها ، كان عليه أن يُعمِلَ عقله ،

ويستدل بها على الموجد سبحانه وتعالى .

كأن الحق - تبارك وتعالى - يقول لك : إذا كان الخالق سبحانه قد أعدَّ لك الكون بما يُقيم حياتك المادية ، أيترك حياتك المعنوية بدون عطاء ؟

والخالق عز وجل خلق هذا الكون بهندسة قيومية عادلة حكيمة تُوفِّر لخليفته فى الأرض استبقاءَ حياته ، وتعطيه كل ما يحتاج إليه بقدر دقيق ، واستبقاء الحياة يحتاج إلى طعام وشراب وهواء ، وقد أعطاها الله للإنسان بحكمة بالغة .

فالطعام يحتاجه الإنسان ، ويستطيع أنْ يصبر عليه شهراً ، دون أن يأكل ، ويحتاج إلى الماء ولكن لا يستطيع أنْ يصبر عليه أكثر من عشرة أيام ، ويحتاج إلى الهواء ولكن لا يصبر عليه لحظةً تستغرق عدَّة أنفاس .

لذلك ، فمن رحمته تعالى بعباده أنْ يمتلك بعضُ الناس القوتَ ، فالوقت أمامك طويل لتحتالَ على كَسْبه ، وقليلاً ما يملك أحدٌ الماءَ ، أما الهواء الذى لا صَبْر لك عليه ، فمن حكمة الله أنه لا يملكه أحد ، وإلا لو منع أحد عنك الهواء لمُتَّ قبل أنْ يرضى عنك .

فمن حكمة الله أنْ خلق جسمك يستقبل مُقوِّمات استبقاء الحياة فترة من الزمن تتسع للحيلة وللعطف من الغير ، وحين تأكل يأخذ الجسم ما يحتاجه على قَدْر الطاقة المبذولة ، وما فاض يُختزَن فى جسمك على شكل دُهْن يُغذِّى الجسم حين لا يتوفر الطعام .

ومن عجائب قدرة الله أن هذه المادة الدُّهنية تتحول تلقائياً إلى أى مادة أخرى يحتاجها الجسم ، فإن احتاج الحديد تتحول كيماوياً إلى الحديد ، وإن احتاج الزرنيخ تتحول كيماوياً إلى زرنيخ ، وهى فى الواقع مادة واحدة ، فمَنْ يقدر على هذه العملية غيره تعالى ؟

وبعد أنْ أعطاك ما يستبقى حياتك من الطعام والشراب والهواء أعطاك ما يستبقى نوعك بالزواج والتناسل .

وقوله تعالى : ﴿ السَّمَـٰوَاتِ الْعُلَى (٤) ﴾ [طه] العلا : جمع عُليا ، كما نقول فى جمع كبرى : كُبَر ﴿ إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥) ﴾ [المدثر]

وهكذا تكتمل مُقوِّمات التكوين العالى لخليفة الله فى الأرض ، فكما أعطاه ما يقيم حياته ونوعه بخَلْق السموات والأرض ، أعطاه ما يُقيم معنوياته بنزول القرآن الذى يحرس حركاتنا من شراسة الشهوات ، فالذى أنزل القرآن هو الذى خلق الأرض والسموات العلا .

والصفة البارزة فى هذا التكوين العالى للإنسان هى صفة الرحمانية ؛ لذلك قال بعدها :

﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ (٥) ﴾

فالآية السابقة أعطتْنا مظهراً من مظاهر العطف والرحمة ، وهذه تعطينا مظهراً من مظاهر القَهْر والغَلَبة ، واستواء الرحمن ـ تبارك وتعالى ـ على العرش يُؤخَذ فى إطار

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى]

وسبق أن تكلمنا فى الصفات المشتركة بين الحق سبحانه وبين

خَلْقه ، فلَكَ سمعٌ وبصر ، ولله سمع وبصر ، لكن إياك أنْ تظن أن سمع الله كسمْعك ، أو أن بصره كبصرك .

كذلك فى مسألة الاستواء على العرش ، فللحقِّ سبحانه استواء على عرشه ، لكنه ليس كاستوائك أنت على الكرسى مثلاً(١) .

والعرش فى عُرْف العرب هو سرير الملْك ، وهل يجلس الملك على سريره ليباشر أمر مملكته ويدير شئونها إلا بعد أنْ يستتبَّ له الأمر ؟

وكذلك الخالق ـ جَلَّ وعلا ـ خلق الكون بأرضه وسمائه ، وخلق الخَلْق ، وأنزل القرآن لينظم حياتهم ، وبعد أن استتبَّ له الأمر لم يترك الكون هكذا يعمل ميكانيكياً ، ولم ينعزل عن كَوْنه وعن خَلْقه ؛ لأنهم فى حاجة إلى قيوميته تعالى فى خَلْقه .

ألم يقل الحق سبحانه فى الحديث القدسى : « يا عبادى ، ناموا ملْءَ جفونكم ، لأنِّى قَيُّوم لا أنام »(٢) .

فكوْنُ الله ليس آلةً تعمل من تلقاء نفسها ، وإنما هو قائم بقيوميته عليه لا يخرج عنها ؛ لذلك كانت المعجزات التى تخرق نواميس الكون دليلاً على هذه القيومية .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٣٤١) : « الذى ذهب إليه الشيخ أبو الحسن وغيره أنه مستوٍ على عرشه بغير حَدٍّ ولا كيْف ، كما يكون استواء المخلوقين . وقال ابن عباس : يريد خلق ما كان وما هو كائن إلى يوْم القيامة وبعد القيامة » . وقال ابن كثير فى تفسيره (٣/١٤٢) : « المسلك الأسلم فى ذلك طريقة السلف : إمرار ما جاء فى ذلك من الكتاب والسنة من غير تكييف ولا تحريف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل » .

(٢) أورد ابن كثير فى تفسيره (١/٣٠٩) عن ابن عباس أن بنى إسرائيل قالوا : يا موسى هل ينام ربك ؟ قال : اتقوا الله ، فناداه ربه عز وجل : يا موسى سألوك هل ينام ربك ؟ فخذ زجاجتين فى يديك ، فقم الليلة . ففعل موسى ، فلما ذهب من الليل ثلث نعس فوقع لركبتيه ثم انتعش فضبطهما ، حتى إذا كان آخر الليل نعس فسقطت الزجاجتان فانكسرتا . فقال : يا موسى لو كنت أنام لسقطت السماوات والأرض فهلكت كما هلكت الزجاجتان فى يديك » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۞ ٦ ﴾

الحق - تبارك وتعالى - يمتنُّ بما يملكه سبحانه فى السموات وفى الأرض وما تحت الثرى ، والله تعالى لا يمتنُّ إلا بملكية الشيء النفيس الذى يُنتفع به .

وكأنه سبحانه يلفت أنظار خَلْقه إلى ما فى الكون من مُقوِّمات حياتهم المادية ليبحثوا عنها ، ويستنبطوا ما ادَّخره لهم من أسرار وثروات فى السموات والأرض ، والناظر فى حضارات الأمم يجد أنها جاءت إما من حَفْريات الأرض ، أو من أسرار الفضاء الأعلى فى عصر الفضاء .

ولو فهم المسلمون هذه الآية منذ نزلت لَعلموا أن فى الأرض وتحت الثرى وهو : (التراب) كنوزاً وثروات ما عرفوها إلا فى العصر الحديث بعد الاكتشافات والحفريات ، فوجدنا البترول والمعادن والأحجار الثمينة ، كلها تحت الثَّرى مطمورةً تنتظر مَنْ يُنقِّب عنها وينتفع بها .

وقد أوضح العلماء أن هذه الثروات موزعة فى أرض الله بالتساوى ، بحيث لو أخذتَ قطاعات متساوية من أراض مختلفة لوجدتَ أن الثروات بها متساوية : هذه بها ماء ، وهذه مزروعات ، وهذه معادن ، وهذه بترول وهكذا . فهى أشبه بالبطيخة حين تقسمها إلى قطع متساوية من السطح إلى المركز .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۞ ٢١ ﴾ [الحجر]

إذن : فالخير موجود ينتظر القَدَر ليظهر لنا وننتفع به .

ثم يقول تبارك وتعالى :

﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ﴾

الحق - سبحانه وتعالى - حينما يطلب من رسوله أن يذكر يريد منه أن يُذكِّر تذكيراً مرتبطاً بنيته ، لا ليقطع العَتْب عن نفسه ، فالمسألة ليست جهراً بالتذكير .

وإذا كان الله تعالى يقول لرسوله ﷺ : إنني سأحرس سرك كما أحرس علانيتك ، وأن الجهر عندى مثل السر ، بل وأخفى من السر ؛ وهو ﷺ مؤتمن على الرسالة فإنه تعالى يقول أيضاً لأمته : إياكم أن تقولوا كلاماً ظاهره فيه الرحمة ، ونيتكم غير مستقرة عليه ؛ لأن الله كما يعلم الجهر يعلم السر ، وما هو أخفى من السر .

وتكلمنا عن الجهر ، وهو أن تُسمع مَنْ يريد أن يسمع ، والسر : أن تخصَّ واحداً بأن تضع فى أذنه كلاماً لا تحب أن يشيع عند الناس ، وتهمس فى أذنه بأنك المأمون على هذا الكلام ، وأنت ترتاح نفسياً حينما تُلقِى بسرِّك إلى مَنْ تثق فيه ، وتأمن ألاَّ يذيعه ، وهناك فى حياة كل منا أمور تضيق النفس بها ، فلا بُدَّ لك أن تُنفِّسَ عن نفسك ، كما قال الشاعر :

وَلاَ بُدَّ مِنْ شَكْوَى إِلَى ذِى مُرُوءَةٍ ... يوَاسِيكَ أَوْ يُسَلِّيكَ أَوْ يتوجَّعُ

فأنت - إذن - فى حاجة لمَنْ يسمع منك ليريحك ، ويُنفِّس عنك ، ولا يفضحك بما أسررْتَ إليه .